

ديناميات العلاقة الصفية المدرسية في ضوء العولمة.

عبد الرزاق سيب¹

مقدمة:

تعد المدرسة عملية عبور كبرى في خروج الطفل من عالم الأسرة المحدود، مهما كان اتساعه إلى عالم المدينة والمجامع ، وهنا تصبح هناك مرجعية مجتمعية أساسية في حياته في موازنة مرجعية الأسرة. إنه بداية الخروج من المعايير الوالدية والعلاقات الأولية إلى المرجعية المجتمعية والمتمثلة في مرجعية المعلم وقانون المدرسة اللذان يدخلان الكثير من الدينامية تعديلا وإثراء ومشاركة على المرجعية الوالدية وقانون الأسرة.

- وأبرز ما يدخل على عالم الطفل في المدرسة هو معيار الأداء في مقابل معيار البنية، وقد يتكامل المعيارين في نوع من التعزيز والإثراء المتبادل الذي يساهم في عملية النمو، أو يتعارضان بمقايير متفاوتة مما يلقي أعباء نفسية لها وزنها في تكوين شخصية الطفل المستقبلية.

فما هي طبيعة هذه العلاقة الدينامية داخل هذا الوسط المدرسي؟؟

وما هو الفاصل بين ما هو موضوعي وبين ما هو ذاتي داخل هذه العلاقة الدينامية؟؟

وما هو الوسط المدرسي المثالي في تجسيد هذه العلاقة الدينامية؟؟

وما دور العولمة في هذه العلاقة الدينامية وتأثيرها على الصحة النفسية للمتعلم؟؟

1) ديناميات العلاقات الصفية المدرسية:

فالطفل يأتي إلى المدرسة غني بأحداثه وخصائصه وتوجهاته التي تؤثر على مسار حياته الدراسية وسلوكاته وتفاعلاته وعلاقاته سواء بالتوافق مع الحياة المدرسية وتوقعاتها مما يوفر أسس النجاح لهذا الطفل وقد يكون على العكس من ذلك قاصرا عن تلبية هذه المتطلبات أو متعارض مع التوقعات، مما يؤسس لحالات متفاوتة من التعثر وسوء التوافق، مما يشكل لدى الطفل سلوك ونشاط معرفي وذهني ليتماشى ومتطلبات التوافق مع حياة غير مكيّفة نفسيا واجتماعيا، يتسم هذا السلوك بالذكاء التحايلي أو ذكاء تدبير الحال للتخفيف من حدة التوتر.

تتخذ العلاقة مع المعلم أو المعلمين دلالات وألوانا مختلفة من العلاقة مع الوالدين كإسقاطات نفسية، طالما أن المعلم هو السلطة الثانية التي تشكل البديل للسلطة الوالدية، وتتخذ العلاقة مع الرفاق حالات متنوعة حسب العلاقة مع الإخوة داخل البيت بطريقة إسقاطية نفسية، لكن هذا الإسقاط يبقى نسبيا وجزئيا ويتلون بخصائص الوضعية وديناميات العلاقات الصفية والمدرسية، مما يسمح للطفل بتصحيح بعض العلاقات المضطربة مع الأسرة أو يعزز بعضها الآخر.

¹ قسم علم النفس جامعة تلمسان

المعلّم في علاقته الوجدانية بالتلاميذ وفيما يتجاوز العلاقات الوظيفية التعليمية، يتم تفاعل لا واع نشط ومتنوع الاتجاهات، نجد المعلّم يفتح عفويا للتلميذ ما، بينما ينصرف عن آخر، يتواصل مع الأوّل بينما يتجاهل الثاني، وقد يلعب المعلّم دورا أبويا عطوفا تجاه تلميذ آخر فتنسم علاقته معه بالرعاية، وفي المقابل قد لا يتحمّل ما يعتبره عدوانية وتجروا عليه من تلميذ غيره لمجرد أن هذا كان ميالا لتأكيد ذاته. فموقف المعلّم من التلميذ ليس محايدا أو موضوعيا واقعيا بالضرورة تماما كما هو موقف الوالدين، فدلالة التلاميذ ومكانتهم تتفاوت في عالمه النفسي تجعل التلميذ يحتل مكانة خاصة لديه وتحمل معها نظاما من التوقعات والمواقف، وهذه التفاعلات اللاواعية وما تحمله من مضامين نفسية تتحوّل إلى تقويم نفسي لا راع للتلاميذ، فيما يتجاوز تقويمه التحصيلي ممّا يؤثر على الصحة النفسية لهذا التلميذ ويبرز قيمة التفاعلات الصفية.

والعلاقات الصفية بين الأتراب تكمل حلقة التفاعل في انعكاساته سلبا وإيجابا على صحة التلميذ النفسية وعلى تكيفه وتحصيله، فبمقدار ما تكون تجربته إيجابية مع أترابه وبمقدار ما يحظى بالقبول والانتماء إلى جماعة الرفاق المتكيفة تقوم عملية تعلّم اجتماعي منمية ومعززة للتلميذ متمثلة في حبه للمدرس والنشاط المدرسي والعكس صحيح إذا تعرض للنذب والاعتداء أو التحالف عليه من قبل الأتراب وإنزال الأذى به يتكون لديه تعلم اجتماعي سلبي يتمثل في الضيق من المدرسة والخوف من الذهاب إليها¹.

وينتضح مما سبق أن بعد الصحة النفسية في الوسط المدرسي له دور حاسم في تحديد التلميذ ومآلها من نجاح ونماء أو فشل وتعثر مما يتوجب الاهتمام بالعلاقات الصفية الأفقية (بين الرفاق) والعمودية (مع المعلمين) باعتبارها من القضايا التربوية الهامة والحاسمة في تحديد مسار ومصير عملية التدريس.

2-ديناميات العلاقات ما بين الأهل والمدرسة:

الكتابات والدراسات الحديثة كلها تجمع على أهمية وحيوية العلاقات ما بين الأهل والمدرسة على مصير تكيف التلميذ مع الدراسة وتحصيله. وفيه تشكل دفعا قويا إيجابيا حين تتكامل جهود الأهل والمدرسين من خلال التواصل والتنسيق والتنظيم وفي المقابل تشكل عقبة فعلية على التكيف والتحصيل حين تكون مضطربة وتتصف بالصراع أو التناقض أو التباعد.

فقد انصب الجهد والاهتمام في هذه الدراسات على البعد التحصيلي في المقام الأوّل في الطفل بمجرد أنه آلة معرفية، وينشط الجانبان (الأهل والمعلمون) إلى حين يصادف الطفل صعوبات تحصيلية أو يقع في مشكلات سلوكية تجعله يصطدم بالنظام المدرسي العام.²

¹ - رمضان القذافي: (1998) " الصحة النفسية والتوافق"، دار الرواد، ط3، طرابلس، ص 54.

² - مصطفى حجازي: (2006) "الصحة النفسية"، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، ص 232.

وعلى العكس من هذا التوجه تبين أبحاث الصحة النفسية الحديثة مقدار تأثير الوضع النفسي لانفصال الطفل على تحصيله وحتى تعلم بعض المواد كالرياضيات والتعثر أو الفشل فيها ليس مجرد قضية معرفية ولقد وجد أن علاج الأزمات النفسية يساعد على تحسين تعلم هذه المادة وسواها من المواد بفضل التحرر من الصدود المعرفية الملازمة لهذه الأزمات والصراعات.

ولقد أصبح معروفاً ومثبتاً أن اهتمام الأهل بتهيئة أطفالهم للدراسة ومتابعتهم والتنسيق مع المدرسة هو من أكبر عوامل النجاح التحصيلي شريطة توفير الرعاية المتكاملة لمختلف جوانب حياة الطفل وتوازنه النفسي واحتياجات نموه.

* العلاقة أهل - معلم ومعلم - أهل

العلاقة تبقى متجاذبة وقد تميل إلى الإيجاب أو إلى السلب تبعاً للمتغيرات التي تميز الحياة الدراسية.

- فكل طرف يمكن أن يحكم على الطرف الآخر، وأن يكون في الوقت نفسه محكوماً عليه من قبله. هذا الحكم الذي يبقى ضمنياً يحتمل أن يظهر إلى العلن في الحالات الإيجابية أو السلبية.

- فالمعلم يحكم على الأهل من خلال ولدهم: ما هي جدارة والديتهم، وما مدى استحقاقهم للوالدية أصلاً؟ ينطلق هذا الحكم السلبي حين يكون تحصيل التلميذ محبطاً لصورة المعلم المهنية عن نفسه أو حين ينخرط هذا التلميذ في مشكلات سلوكية تحمل التحدي أو الإزعاج للمعلم، فالأحكام السلبية (مقهورون، عاجزون، غير جديرين بالوالدية).¹ هنا يحدث إسقاط من قبل المعلم على الأهل حين يجابه صعوبات في محاسبة لذاته وحكمه على أدائه الذي لم يتمتع بالكفاءة المهنية ويحولها إلى الأهل على أنهم مصدر الخلل وسبب الفشل، وبالتالي تنتفض المدرسة يدها من هذا التلميذ وأوليائه باعتبارهم يشكلون إعاقة للنظام أو إحباطاً له باعتبارهم غير جديرين بخدماته.

وعلى العكس من هذا الاتجاه فالمعلم يصدر حكمه (التقويمي على جدارة الأهل معترفاً بها ومقدراً لها ورافعاً من مكانتها، حين تكون تجربته مع التلميذ إيجابية تعزز إحساسه بكفاءته المهنية، إنهم الأهل الجديرون بالاعتبار والذين أنجبوا ونشأوا هذا التلميذ النجيب أو المتفوق والذي يجسد كفاءة المعلم ويكرس قدرته على العطاء.

وكذلك الأهل بدورهم يلعبون دور الحكم الذي يقوم أداء المعلم وكفاءته: من هو هذا المعلم الفاشل الذي لم يستطع تعليم ولدنا أو يحسن توجيهه؟ إنه المعلم غير الجدير بأن نعهد إليه بأبنائنا، هذا الحكم السلبي جاهز بعد تكرار فشل التلميذ تحصيلياً وتكيفاً.

فالأهل في هذه الحالة يتهربون من جرحهم النرجسي (إيذاء صورة ذاكرتهم ومفهومهم عنها) الناشئ عن فشل ولدهم وتعرّضه بإسقاط المسؤولية على المعلم فهو المقصّر الذي لا يستحق شغل هذه المكانة ولا

¹ - المرجع نفسه، ص 33.

امتلاك هذه السلطة ففشل الولد يثير مشاعر المساس بتكامل القيمة الشخصية على صعيد صورة الجسد (من خلال الاعجاب) أو على صعيد صورة الوالدية من خلال التشبث وكلاهما مشاعر تولد أزمات نفسية يصعب تحملها.¹

وهنا يصبح المعلم والمدرسة معه هما أقرب الموضوعات لهذا الإسقاط وما يحمله من علامات وإدانات المعلم الفاشل أو النظام التعليمي السيئ الذي لم يتمكن من علاج المشكلة، وهنا يبقى الطفل في وضعية مأزقية بين الاتهامات المتبادلة، وفي المقابل فإن الود يصبح موصولا بين الأهل والمعلم والمدرسة عموما في حالة التجربة المدرسية الإيجابية تحصيلًا وتوافقًا.

فهذه الديناميات، خصوصا في الحالات السلبية تبقى رهنا بمقدار نضج كل من المعلم والأهل، ذلك النضج الذي يفسح المجال أمام التقدير الموضوعي للحالات والتعامل الواقعي العقلاني والمهني معها تشخيصا وتدخلًا وعلاجًا، وبمقدار سيادة هذه الواقعية يحظى التلميذ بفرص أكبر للحصول على المساعدة اللازمة في حل مشكلاته التحصيلية وأزماته النفسية على حد سواء.

يتضح مما سبق مقدار أهمية تأهيل المعلم والمسؤولين في المدرسة عموما، على برامج الصحة النفسية وتفهم آليات وديناميات العلاقات والتفاعلات والتبادلات بين أركان ثلاثة (الأهل، التلميذ، المدرسة)، كما يتعين إعدادهم فيما يتجاوز المناهج وطرق التدريس والإدارة المدرسة، كي يتمكنوا من تشخيص هذه القضايا والتدخل الفاعل لعلاجها والوقاية منها.

3) المدرسة من تقويم الدرجات إلى تقويم النجاح في الحياة:

تركز المدارس عادة على تربية مهارات معرفية ضيقة وتصرف جلّ وقتها في تصنيف التلاميذ في رتب تحدد على أساسها تفوقهم الدراسي، كما قاله "هوارد جارفرد" فقد آن الأوان كي نصرف وقتا أقل في تصنيف رتب الأطفال ووقتا أطول في مساعدتهم على اكتشاف كفاءاتهم ومواهبهم الطبيعية وتنميتها.² إن أهم إسهام يمكن أن تقدمه التربية لنمو الطفل يتمثل في مساعدته على التوجه نحو مجال يتناسب بأفضل ما يمكن مع نواحي موهبته وقدراته، حيث يمكن أن يكون سعيدا أو ناجحا.³ إنما دعوة لأن تقوم المدرسة بتنمية مهارات الحياة والنجاح فيها، ومن أهمها الذكاء فيالتواصل الذي يشكل قطاعا كبيرا من الصحة النفسية والذي يحوي العناصر التالية:

- الاستبصار الذاتي، ومعرفة الحالات الوجدانية والوعي بها في مختلف مواقف الحياة مما يساعد في توجيه الذات نحو القرار الأفضل.

- القدرة على ضبط الانفعالات والتعامل مع الضغوطات النفسية والتسلح ضد القلق في الشدائد الحياتية.

¹-جمال الخطيب: (1995) "تعديل السلوك الإنساني"، مكتبة الفلاح، ط3، الكويت، ص125.

²- جون بولبي: (1991) "سيكولوجية الانفصال: ترجمة عبد الهادي عبد الرحمان، دار الطليعة، بيروت، ص 249.

³- محمد خالد الطحان: (1987) "مبادئ الصحة النفسية"، دار القلم، دبي، ص 23.

- القدرة على التحفيز الذاتي وتعزيز الحالات الوجدانية الإيجابية والمواقف الإيجابية في الحياة، مما يخدم أهداف بناء المشروع الحياتي ومتطلباته.
- تفهم الآخرين والقدرة على التعاطف معهم، ونلمس خبراتهم الوجدانية واستيعابها، مما يشكل أساس التواصل الإنساني الأصل.
- القدرة على إدارة العلاقات والتفاعلات مع الآخرين مما يشكل أساس الكفاءة الاجتماعية، ويعزز شبكة العلاقات والقرارات القيادية، ويقوي مشاعر الالتزام والانتماء.
- فهذه المهارات تعكس مستوى جيد من الصحة النفسية يمكن أن يتم تعلمها في الوسط المدرسي كتعلم باقي المواد الدراسية، فيتوقع مستقبلا تلازم مساري التعليم الأكاديمي والتعلم الانفعالي، إذ يمكن للمعلم أن ينفذ المنهج بطريقة تعزز الصحة النفسية من خلال توفير محيط عاطفي يعزز كفاءات التلاميذ العاطفية.¹

4-الوسط المدرسي المثالي:

لقد أثبتت الأبحاث الحديثة على الدماغ أن هناك تكاملا ما بين التفكير والانفعال وهو الذي يوفر القدرة الفعلية على التعامل مع قضايا الحياة ومجابهتها بالفاعلية المطلوبة. فهناك دماغان يعملان بانسجام في حالات الصحة النفسية، وهو انسجام ضروري لحسن توجيه حياتنا الانفعالية وتكيفنا الاجتماعي ونجاعة القرارات والخيارات. فالذهن المفكر لا يعمل بأحسن حالاته التي تتجلى في ذكاء التعامل مع المشكلات إلا بمقدار شراكته ونشاطه وتأزره وتكامله مع الذكاء الانفعالي، وعندما تنشط هذه الشراكة يرتفع كل من الأداء العقلي والذكاء الانفعالي، وهذا هو النموذج الجديد الذي تتادي به الصحة النفسية المدرسية عوضا عن النموذج القديم الذي يتجاهل الانفعال ويلغي العاطفة لصالح العقل المحض في نوع من وهم الوصول إلى آلة معرفية تحصل العلم بتفوق وفي حالة من فقدان الروح والوجدان.²

- فالصحة النفسية النمائية هي في المحصلة نتاج الحياة المليئة التي تتيح للتلميذ مدى الفرص كي يكون وبصير كمشروع مستقبلي، بدلا من طرق التبعية والفوقية وترسيخ الطفيلية واللامسؤولية التي هي أبعد عن حاجات الناشئة وتوفير متطلبات الصحة النفسية.

5-العولمة والصحة النفسية: إن البشرية تدخل في العولمة والتي تشكل مرحلة حضارية جديدة كليا بخصائصها وتوجهاتها وتحدياتها، وكما أن لكل مرحلة حضارية، ولكل ثقافة مقوماتها في الصحة النفسية، وكذلك بدأت تبرز ملامح جديدة من هذه المقومات التي تتلاءم مع العولمة وتخدم خصائصها ومتطلباتها.

¹- عبد الغفار عبد السلام:(1976)" مقدمة في الصحة النفسية"، دار النهضة العربية، القاهرة، ص58.

² - مصطفى حجازي:(2000)"التعليم العالي والمعرفة"، المؤتمر التربوي الرابع، المنامة، ص 217.

وقد أشار طلعت منصور إلى هذا التغير الواضح في المنظور، منطلقاً من أن المتطلبات القادمة تتمثل في الإنتاجية عالية الجودة، التي تستطيع الصمود في تيار التنافس العاصف، وهذه الجودة الإنتاجية العالمية مشروطة بالضرورة بجودة الأداء الإنساني وبالتالي بالكفاءات النفسية الواجب توافرها لدى الإنسان المنتج، فالجودة الإنتاجية إذاً يجب أن تسبقها جودة نفسية، والتي تنعكس في الأداء الخارجي المميز الابداعي.¹

فطلعت منصور يتجاوز جودة الأداء ومعاييرها، وقدّم منظوراً تمثل الصحة النفسية فيه ركناً أساسياً من حركة اجتماعية عالية واسعة النطاق، تهتم بقيمة الإنسان وبحقه في حياة كريمة تستحق أن تعاش. فهو بهذا المنظور يخرج عن اتجاهات العولمة النفعية، ويذهب خطوة أبعد في ذلك للتحديث عن الصحة النفسية الايجابية على مستويات الفرد والجماعات المحلية والمجتمع. فتنحصر الصحة النفسية من الفرد إلى الجماعات إلى المجتمع في وحدة متكاملة.

هذا التكامل يولد الاقتدار الذي يهيئ لنوعية الحياة عالية التميز والابداع في الانتاج كما في المشاركة والانتماء، وهذا الاقتدار يجعل من الفرد والمجتمع قادرين على مواجهة تحديات العولمة والاستفادة من فرصها، وتحقيق القدرة الجسمية والعقلية والمعرفية والعاطفية والاجتماعية وهذا يوصل إلى إثراء الحياة بحسن توظيف مرادها وهكذا تصبح غاية الصحة النفسية، "تحسين نوعية الحياة".

فالصحة النفسية الفردية لا تقوم من فراغ، ولا هي حالة مغلقة على ذاتها، بل إنها مشروطة بمجموعة من الدوائر التي تشكل أطرها، التي تتفاوت في اتساعها انطلاقاً من الفرد إلى الجماعات التي ينتمي إليها، والمؤسسات التي تنظم وتشكل سلوكياته وصولاً إلى الإطار المجتمعي الذي يندرج بدوره ضمن أطر ثقافية حضارية، فالصحة النفسية للفرد تتبادل التأثير والتأثير والفعل والانفعال بكل هذه الدوائر والأطر، ولا تستقيم صحة نفسية فردية إلا بمقدار صحة هذه الأطر وعافيتها وإيجابيات تفاعلها وتكاملها.

أما مصطفى حجازي فيرى أن الصحة النفسية تقوم على علاقة منطقية وظيفية بين خصائصها فالإنسان نظام حي يعيش في مجال حيوي يتبادل وإياه الاعتماد والاعتماد، ويمكن بناء على ذلك القول بأن الصحة النفسية هي تلك الخاصية المميزة لهذا النظام الحي في بنيته الداخلية من ناحية وفي تفاعله الحيوي الوظيفي مع محيطه من ناحية ثانية، وهو ما يتيح له النماء والارتقاء، وعليه فيمكن النظر إلى الصحة النفسية من منظور رباعي الأبعاد: صحة البنية الداخلية، صحة الوظائف، صحة التفاعل والانتماء والصحة النمائية المتجاوزة لذاتها تحقيقاً لمشروعها الوجودي، والعلاقات بين هذه الأبعاد تكاملية تفاعلية فلا صحة وفاعلية للوظائف في بنية سقيمة، ولا إمكانية للنماء بدون صحة البنية ووظائفها

¹ - طلعت منصور: (1995) "الصحة النفسية كسياسة اجتماعية من أجل جودة الحياة" مؤتمر دولي، الكويت، ص 346.

وتفاعلها مع محيطها الحيوي.¹ فالنظر في صحة الإنسان النفسية يمكن إذا أن يتمحور على هذه الأبعاد الأربعة:

الصحة النفسية البنيوية: ويمكن التعبير عنها في متانة الشخصية وحيوية خصائصها، وهذه الصحة تنطلق من الأساس البيولوجي الجسمي، فسلامة الجسم تشكل المرتكز، ومن ضمنها تحتل سلامة الدماغ والجهاز العصبي مكان الصدارة، وأما على المستوى النفسي المحض فإن سلامة البنية النفسية تشكل مرتكز كل نشاط وظيفي تفاعلي لاحقاً وهنا يمكن التوقف عند بعض الخصائص للصحة النفسية البنيوية، ومن أبرزها الطمأنينة القاعدية التي تشكل أساس كل صحة نفسية لاحقة، وتقترن هذه الطمأنينة بالتقدير الإيجابي غير المشروط الذي يحظى به الطفل، وبسلامة رعايته الأولية، منها تنطلق وعليها تبنى كل الخصائص التي قالت بها المنظورات المختلفة، فهي الحالة الإيجابية الكيانية التي يشعر الإنسان معها بأنه بخير.

الصحة النفسية الوظيفية: وتظهر في الإنسان الناشط بكامل وظائفه الجسمية العقلية والمعرفية والعاطفية والاجتماعية، وتكملها الخاصية الفاعلية والاقتدار من القيام بهذه الوظائف، حيث لا يكفي نشاط الحد الأدنى، بل تتوحد الصحة النفسية بمقدار ما يقوم الإنسان بهذه الوظائف بدرجات أكثر تقدماً ونشاطاً، ويمكن تطبيق هذه الفاعلية على ثلاثية العمل والإنجاب والترويج الفرويدية لأن كل ركن فيها يتضمن العديد من الوظائف الحيوية، إن القدرة على النشاط الوظيفي الكامل بفاعلية واقتدار شكل النقيض الصحي النفسي لحالات المرض والاضطراب.

فالنشاط الوظيفي الفاعل مشروط بالصحة النفسية البنيوية، ذلك أن الخلل على مستوى البنية ينعكس سلباً على العديد من الوظائف من ناحية، أو على مستوى فاعليتها من ناحية ثانية، أما إذا توفرت الصحة النفسية البنيوية الأساسية، فإن أي قصور وظيفي أو تدن في الفاعلية الوظيفية يظان جزئياً محدودين.

الصحة النفسية الانتمائية القيمية: إن الانتماء ليس مجرد ولاء، بل هو يتجاوز إلى مستوى الوحدة الحيوية بين الإنسان ومحيطه الطبيعي والاجتماعي، والانغماس في مرجعية ثقافية تشكل أساس هويته ونظرته إلى الوجود، ذلك أن الهوية الذاتية ليست سوى أحد مكونات الهوية، وقد يكون في أمراض الاغتراب التي يكثر الحديث عنها في الأدبيات الغربية تعبر عن الخلل الكبير في الانتماء إلى الهوية الثقافية، كما قد يكون في الشكوى الوجودية المستفحلة في الغرب من حياة الاستهلاك، والتي تعتبر مسؤولة إلى حد بعيد عن تنامي التيارات الداعية إلى العودة إلى الأصوليات الدينية العرقية، تعبير واضح عن الخلل في الصحة الانتمائية القيمية، فالانتماء إلى الذات لا يستقيم إلا من خلال الانتماء إلى مرجعيات تتجاوزها جماعياً وقيماً.

¹ - مصطفى حجازي: (2006) "الصحة النفسية، مرجع سابق ص 232.

فصحة الانتماء والقيم أخذت تحتل ركنا ومكانة مميزة في برنامج التنشئة والتنمية، وهي تشكل أحد أبرز مقومات نوعية الحياة التي تنادي بها وتسعى إلى تحقيقها سياسات التنمية المستدامة. الصحة النفسية النمائية: وهي تشكل محصلة المقومات الثلاثة السابقة، وتتمثل في حدها الأدنى في تحقيق الذات وفي بعدها الأقصى في انجاز مشروع وجود متنام، متجاوز لذاته على الدوام. وتشمل الصحة النفسية النمائية الأبعاد الثلاثة السابقة بدورها: نمو البنية وارتفاعها، نمو الوظائف ونشاطها بكامل طاقتها وفعاليتها، نمو الانتماء الفاعل الذي يتحول إلى عنصر إغناء للجماعة والمجتمع والثقافة، وبذلك ترتقي عمليات التفاعل ما بين النظام ومجاله الحيوي لمصلحة نمو وحدتها، وعلى عكس من ذلك يشكل توقف النمو على هذه الصعد الثلاثة حالة المرض والاضطراب اللذين يتصفان بالجمود والتصلب والرتابة والتكرار والنمطية والاجترار، أو يتعرضان للتقهقر المتفاوت الدرجات وصولا إلى التفكك والانحلال في أشد درجات المرض.¹

فيبدو حاليا أن الصحة النفسية في أركانها جميعا أصبحت ضرورة كبيرة للإنسان المستقبلي كما أن صيانتها وتعزيزها تشكل عملية ملحة للقائمين على شأن التربية والتنشئة وإدارة شؤون المجتمع عموما. ومن أهم التحديات التي تواجه الصحة النفسية نجدها على مستوى التعلم وسوق العمل، فالعولمة تقوم على قانون القوة، فبدلا من الانتقاء الطبيعي القادر على الدرجة الأفضل من التكيف مع المحيط الحيوي، فنحن مع العولمة بصدد الانتقاء القائم على قوة المعرفة والقدرة على انتاجها وتطبيقها في التكنولوجيا، والإنتاج كما في الخدمات وتتلاءم قوة المعرفة بالطبع بمستوى القدرة على توظيف الطاقات الذهنية والإمكانات الشخصية.

ومن أبرز آثار التكنولوجيا المعلوماتية القضاء المتسارع على دور التلميذ التقليدي وأساليب التعلم التقليدية التي يكون فيها التلميذ منقادا للسلطة المعرفية الفوقية للأستاذ والكتاب، فيستمع بدون نقاش أو تساؤل ويحفظ المعلومات الجاهزة وهذا ما يؤدي في أحيان كثيرة إلى شل تشغيل الدماغ والحجر على التفكير التحليلي النقدي والتفكير الابداعي.

وهذه الوضعية السلبية لا تتطلب درجة عالية من الصحة النفسية على مستوى النشاط الذهني، كما أنها تتطلب درجة عالية على مستوى قوة الشخصية واستقلاليتها وقدرتها على اتخاذ القرار، وامتلاك مرجعية الخيارات، ولذلك فإن التلميذ الأكثر تفوقا من الناحية التحصيلية حسب المقياس التقليدي هو الأكثر قدرة على التسميع لكثلة المعلومات، وعلى العكس قد يواجه التلميذ الذي يتمتع بشخصية قوية واستقلالية في الآراء لمشاكل كثيرة في المضايقات والارغامات كي يتمثل ويدخل في القوالب الجاهزة، فكم من أزمت يعاني منها ذو الدهن المعتقد والمتسائل المحلل، والناقد الذي يجابه معرفيا المعارف التي تفرض عليه.

¹ - مصطفى حجازي (2006) "الصحة النفسية" مرجع سابق، ص 54.

أما ثورة تكنولوجيا المعلومات التي بدأت تسيطر على عالم الدراسة بشكل متسارع، فإنها تبرز التلميذ الذي يمتاز بالقوة الذهنية وقوة الشخصية واستقلالها وتحررها من الدور السلبي المتلقي للمعلومات أي تبرز متعلمين يتسعون بدرجات عالية من الصحة النفسية التي توفر إطلاق طاقتهم على اختلافها في أنشطة استكشافية استقصائية تحليلية نقدية انتقائية، وعليه أن يتعامل مع الكم الهائل من المعلومات فيمحصها ويفرزها ويحللها وصول إلى اختيار حاجته منها، ولا يعدودور الأستاذ هنا دور المرشد الذي يساعد في وضع معالم طريق الاستكشاف أمام المتعلم.

وهكذا يحدث التحول من مراكمة المعلومات وتخزينها في شكلها الخام وصولاً إلى استرجاعها في الامتحان إلى اتقان المهارات المنهجية الذهنية المتمثلة في إقامة العلاقات المنطقية بين المعلومات لإنتاج معرفة جديدة.¹

وهذه العملية تستلزم على المتعلم اتقان أنواع من القراءات، بدء بالقراءة المتقدمة التي تلم بحدود الموضوع وتشعباته، ودخولاً إلى القراءة الانتقائية التي تفرز وتصنف وتختار، ووصولاً إلى القراءة المتعمقة ذات القدرة على الاستيعاب التي تبني نظاماً معرفية سليمة.

أما في مجال العمل فتبدوأن التحديات أصعب وأعقد، لأن القوة والقدرة والمرونة ترتبط ارتباطاً مباشراً بمثانة الصحة النفسية كشرط لإطلاق الطاقات الحية، لأن عالم العمل لا يحتاج فقط لقوة المعرفة والمهارة بل كذلك لقوة التكوين النفسي.

فالاختراعات في عصر العولمة تتدافع وتطور التقنيات يتسارع فلا تلبث تكنولوجيا معينة أن تنزل إلى السوق حتى يكون الجيل التالي لها قد أصبح جاهزاً، فما كان تقنية نخبوية لا يلبث أن يصبح أمراً مألوفاً وواسع الانتشار.

ومع هذا التسارع في التقنيات هناك تسارع آخر يواكبه وهو تغيير أساليب العمل والإدارة والتسويق والخدمات، ويتطلب هذا التسارع مرونة عالية على المستويات النفسية والسلوكية للتكيف مع المستخدمات المتلاحقة.

والمرونة والقدرة والتكيفية تستدعي الاستعداد لعدم الركون إلى المهن المستقرة ويتعين على الناشطين في سوق العمل إظهار القدرة الدائمة على التغيير والتدريب الدائم لمتابعة المستجدات.

وستظهر الشركات الكبرى قسماً هاماً من ميزانياتها على التدريب المستمر للعاملين لديها وإعادة تكيفهم لتحولات التقنيات، وأساليب العمل ومتطلباته وتوجهات أسواق الانتاج والخدمات والتوزيع، كما سيتطلب الأمر من الإنسان المنتج تخصيص ما يزيد عن 25% من وقت حياته المنتجة للتدريب ومتابعة المستجدات، إذا أراد ضمان مورد رزقه.

¹ - علي نبيل: (2000) "العقل العربي وسط إعصار المعلومات"، مجلة العربي، عدد 494، وزارة الاعلام، الكويت، ص 97.

ولنا أن نتصور مقدار الضغوط النفسية المصاحبة لهذه الحالة، ومقدار الطاقة النفسية التي يحتاجها المرء كي يتعامل بالمرونة التكيفية اللازمة مع هذه التحولات مع الاحتفاظ بتوازنه النفسي من ناحية وقدرته على العطاء والقيام بالأدوار والمهام المطلوبة منه من ناحية ثانية.

كما يواجه الإنسان كذلك تحدي آخر وهو الوقت، حيث يتعذر عليه تلبية ازدياد المتطلبات وتسارعها والسيطرة على وتيرة العمل، وبالطبع فإن الوقت يحمل ضغوطا نفسية هامة حيث تضطرب وتيرة العمل والراحة، ويتعذر أحيانا مراعاة احتياجات الدورة البيولوجية للعامل، كما تنعكس هذه الظاهرة على الحياة الاجتماعية والأسرية من الجانب النفسي، ويتطلب ذلك مزيدا من القدرة على التحمل وإيجاد الحلول والبدائل.

كما تبرز مشكلة أخرى في التعامل مع الأجهزة الإلكترونية وهي انعدام التواصل والتفاعل الإنساني يشعر بالحاجة إلى التواصل واللقاء، والارتباط العاطفي، مما لا يوفره تزايد الوجود للتواصل الإلكتروني فالعامل لا يتعامل مع رب العمل بل مع جهاز، وبذلك تتلاشى علاقات العمل الإنسانية مما يزيد من وتيرة الضغوطات النفسية¹

خاتمة:

إذا فالأمر لا يقتصر على المناعة النفسية في التعامل مع الضغوطات والتحولات والتسارع وانعدام الضمانات الوظيفية، بل يتعداه إلى ضرورة تمتع الإنسان المستقبلي بالصحة النفسية الإيجابية في حالة من الثقة بالذات والإمكانات والاستقلالية في إدارة شؤون الحياة، وتخطيط المستقبل والمبادرة إلى اكتشاف الفرص وصولا إلى صناعتها، ويضاف إلى ذلك التفكير الإيجابي والقدرة على إبداع حلول جديدة للمشكلات، ومهارات اتصالية عالية لتسويق الخبرة والتفاعل النشط مع الآخرين، والتمتع بمهارات العمل مع الفريق، وتفهم الذات مع الآخر من خلال درجة عالية من الذكاء الانفعالي، والإنسان المتمتع بقوة الصحة النفسية فقط سيتمكن من أن يكون نشطا على ساحة العمل، والحياة في ظل تحديات العولمة.

¹ - مصطفى حجازي: (2006) "الصحة النفسية" مرجع سابق، ص 311.